المقاومة الشعبية بوادي سوف وأثرها على العلاقات مع الجنوب التونسي
1854- 1882

الدكتور علي غنابزية

جامعة الشهيد حمه لخضر الوالدي.

الملخص

هذا المقال حول منطقة وادي سوف التي تعتبر إقليما استراتيجيا في تاريخ المقاومة الشعبية المسلحة في الصحراء الجزائرية الجنوبية الشرقية ، ولها مساهمة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، ووقفت حاجزا ضد توسعه، وربطت علاقات هامة بين قادة المقاومة في الجزائر وتونس، عبر وادي سوف ومنطقة الجريد التونسي، لأن سوف هي معبر التنسيق والاتصال والإمداد بالمال والسلاح، واستمر نشاطها إلى وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية 1881، ويومها استقرت الإدارة الفرنسية بوادي سوف التي خفت صوتها إلى حين اندلاع الثورة التحريرية.

Résumé:

Cet article parle de la région de Oued Souf qui est considérée comme une zone stratégique dans l'histoire de la résistance populaire armée au Sahara algérienne sud-est, elle a une participation à la résistance contre la colonisation française, se tenait une barrière contre son expansion et elle a fait des relations importantes entre les dirigeants de la résistance en Algérie et en Tunisie, à travers Oued Souf et la région de Djérid tunisienne, parce que Souf est le traversé de la coordination, de la communication et du renfort de l'argent et la munition. Son activité s'est duré jusqu'à ce que la Tunisie soit soumise sous la protection française en 1881. L'administration française s'est installée à ce moment là à

Oued Souf dont la voix s'est baissée jusqu'à le déclenchement de la révolution de la libération.

ـ مقدمـة:

مثلت منطقة وادي سوف ملجأ للمقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي منذ وطئت أقدام الفرنسيين الإقليم سنة 1954، إذ التجأ إليها العديد من المقاومين ولاسيما ابن ناصر بن شهرة، ومحمد بن عبد الله ، ومحمد التومي بوشوشة، ومحي الدين بن الأمير عبد القادر، وكانت دوافعهم مختلفة، وأبرزها طلب الدعم المادي والبشري، فضلا عن طلب الأمان، واسترجاع الأنفاس، لكسب القوة ومواصلة الكفاح، وربما يتسارع أولئك القادة ويتوغلون في الجنوب التونسي، للمزيد من الأمان وكانت زاوية نفطة العزوزية مأوى لهم، وهذا ما جعل السلطات

الفرنسية تضج منهم، وتحاول صدهم عن ذلك المأوى، ولكن بداية السبعينات كانت حدا فاصلا لهذا المأوى، لأن السلطات الفرنسية تمكنت من محاصرة فلول المقاومة، وبدأت في التخطيط لاحتلال تونس والذي تم سنة 1881، وهذا مكنها من التوغل في الجنوب الشرقي، ولكن إزعاج المقاومة للقادة المحليين من أعوان الاستعمار، عجل في اندفاع جحافل القوات الفرنسية نحو تلك المناطق، وتمت السيطرة على وادي سوف وما جاورها من المناطق الصحراوية سنة 1882.

ويطرح هذا البحث إشكالية جوهرية، حول الأسباب والعوامل التي أخرت الاحتلال النهائي لوادي سوف وبقية المناطق المجاورة لمدة ثلاثة عقود؟ وهل كان للمقاومة الشعبية دخل في تأخير هذا الاحتلال؟ وما هو تأثير المقاومة الشعبية على وادي سوف، والجنوب الشرقي، وبلاد الجريد التونسية؟ وما علاقة التوسع الفرنسي في الصحراء وأثره على المقاومة الشعبية، والعلاقات الشعبية الجزائرية مع الأيالة التونسية؟

1) احتلال الفرنسيين لبسكرة (1844):

أسند الأمير عبد القادر مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية إلى محمد الصغير بن عبد الرحمان المدعو (أحمد بلحاج)، فقام بنشاط حربي واسع بالتصدي للقوات الفرنسية ، وقام بدور سياسي واهتم بتدعيم سلطة الأمير في الناحية الشرقية، كما راسل الباي التونسي، وسعى لربط الصلات والعلاقات الحسنة بين الأمير وبايات تونس [1]، لأن مقاطعته متاخمة لتونس، وكانت سوف تمثل الحدود الجنوبية الشرقية مع تونس. وبالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها فإنه لم يستطع وقف تقدم القوات الفرنسية، وبمساعدة بن قانة دخلت إلى بسكرة في 4 مارس 1844.[2] واحتلتها، وبعد حين أصدر الدوق دومال أمرا تنظيميا عاما يوم 23 ماي 1844 ، تم بمقتضاه تعيين الرائد توماس قائدا أعلى لدائرة بسكرة وتحت إدارته أربعة مسئولين من الأهالي يعملون في نطاق محدد بمنطقة الزيبان ومنهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة الذي عيّن في منصب خليفة في الصحراء.[3]

بعد سقوط بسكرة قاتل محمد الصغير بن عبد الرحمان، لكنه اضطر في الأخير أن يغادر البلاد متخذا من منطقة سوف ملجأ له،[4] ولكنه لم يتوقف عن المقاومة تحت لواء الأمير حتى بعد استسلام هذا الأخير عام 1847، حيث كان بالحاج يجوب المناطق المتاخمة للزيبان، وهي سوف والجريد التونسي. وعندما وقعت أحداث واحة الزعاطشة أواخر عام 1849،[5] وصلت أصداؤها إلى وادي سوف والجريد،[6] وحينئذ غادرت سوف مجموعة من المقاومين لنجدة إخوانهم المحاصرين،[7] ولا يستبعد التنسيق بين السوافة وبين محمد

الصغير بن عبد الرحمان الذي كان يومها في نفطة التونسية، وقدم لنجدة الشيخ بوزيان شيخ واحة الزعاطشة، والذي كان تابعا فيما سبق لسلطة الأمير عبد القادر.[8]

إلا أن نتائج الأحداث كانت مأساوية وانتهت بإحكام الفرنسيين قبضتهم على منطقة الزيبان مع نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتواصل توغلها نحو الجنوب في المناطق المتاخمة للزيبان ومنها منطقة وادي ريغ ووادي سوف.

2) ظهور مقاومة الشريف محمد بن عبد الله ونتائجها (1852 -1854):

كانت مناطق الجنوب الصحراوي الجزائري حلبة للصراع وميدانا ملائما للثائرين وخاصة الشريف محمد بن عبد الله الذي لقي في وقت مبكر مؤازرة من الثوار المحليين وذلك مكنه من الهيمنة على خط يشمل عدة مدن وقرى ابتداء من الاغواط إلى ورقلة وأخيرا تقرت وسوف، ولم تستطع القوات الفرنسية أن تواصل توغلها نحو الحدود الجنوبية الشرقية المتاخمة لتونس عبر " وادي سوف " إلا بعد تطويق المنطقة المجاورة والهيمنة على الاغواط وورقلة وتحييد وادي ميزاب واحتلال تقرت.

ا) احتلال الاغواط:

بدأت مهاجمة الشريف محمد بن عبد الله لها في أوائل عام 1852 وذلك دفع الفرنسيين إلى إرسال جيش بقيادة بيليسيه بداية من شهر أكتوبر، إلا أن الشريف استطاع الدخول إلى الاغواط في شهر نوفمبر بمساعدة بن ناصر بن شهرة، واستمر القتال على أشده وانتهى بمعركة عنيفة بين الطرفين في 4 ديسمبر 1852 أجبرت الشريف وأعوانه على الانسحاب، واستولى الفرنسيون على الاغواط،[9] ووضعوا بها حامية عسكرية دائمة واتخذوها قاعدة حربية لتوسعاتهم نحو الجنوب.[10]

ب) احتلال وادي ميزاب (1853/04/19):

كما أبرموا اتفاقا مع أهل ميزاب في 19 أفريل 1853 يتعهدون فيه بدفع ضريبة سنوية قدرها 45 فرنك والاعتراف بحمايتهم وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية، بشرط أن يتعهدوا بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين والغرض من ذلك تحييد أهل ميزاب وابعادهم عن مساعدة الثوار أمثال الشريف محمد بن عبد الله وابن ناصر بن شهرة.[11]

ج) احتلال ورقلة(1853):

كانت ورقلة موقعا هاما للشريف محمد بن عبد الله وصديقه بن شهرة، فقد جند لها الفرنسيون قوات كبيرة قدمت من البيض في 3 نوفمبر 1853 والتحمت بقوات المقاومين في نقوسة والرويسات وانتهت بهزيمة الشريف ورفاقه، وسيطر الفرنسيون على ورقلة في أواخر عام 1853.[12]

ولم يبق للفرنسيين يومئذ إلا احتلال القلعة الحصينة وهي إمارة بني جلاب " تقرت " التي وضع الفرنسيون أمامها كل ثقلهم العسكري، لأنها تأوي المقاومة وتحتضنها.

وقد وصل في شهر مارس 1853 طابور فرنسي إلى مدينة بسكرة تحت قيادة العقيد ديفو قائد مقاطعة باتنة، والذي توجه صوب تقرت من أجل غزوها،[13] وقد اكتفت تلك القوات بإجراء مناورات بضواحي المدينة محاولة إثارة الفزع في حياة سكان، وتحذير سلمان من مغبة إصراره وتعنته ورفضه موالاة الفرنسيين.[14] ومن جهته قام سلمان بتحصين مدينته، واستنفر سكان تقرت، وقرى وادي ريغ وأهل سوف، وراسل شريف ورقلة محمد بن عبد الله،[15] وذهب إلى أبعد من ذلك حيث طلب المساعدة والمدد من الباي التونسي، الذي لم يستجب لطلبه، واكتفى بإهدائه ستة بنادق.[16]

وبعد انسحاب القوات الفرنسية عن تقرت بدأت قوات المقاومة الشعبية تتجمع فيه، إذ وصلها الثائر محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) في صيف 1853، لأن مدينته احتلت من طرف الفرنسيين.

أما الثائر بن ناصر بن شهرة (ولد 1804) الذي ينتمي إلى قبيلة الأرباع ومن أتباع الطريقة القادرية بالأغواط، والذي بدأ مقاومته للفرنسيين منذ عام 1851 واتصل بالشريف محمد بن عبد الله بورقلة وتعاون معه، واستطاع في سنة 1852 أن يسيطر على بلدة قصر الحيران قرب الأغواط واتخذها مركزا لمقاومته، ولما غزا الفرنسيون ورقلة، كان من المدافعين في جيش محمد بن عبد الله، وأصيب بجروح بليغة، وفي نهاية 1853 انسحب نحو تقرت للعلاج، وكان تحت رعاية الشيخ سلمان بن جلاب [17] ، وبعد أيام من الاستشفاء غادر بن شهرة المنطقة نحو الجريد التونسي عبر وادي سوف.[18] وفي تلك الأثناء ازداد الإصرار الفرنسي لاحتلال منطقتي تقرت وسوف والذي تم الإعداد له بكل قوة وصرامة.

د) احتلال تقرت (5 / 12 / 1854):

كان حاكم تقرت عام 1854 هو الشيخ سلمان الجلابي الذي رفض التعاون مع الفرنسيين و فتح باب مدينته للمقاومين خاصة الشريف محمد بن عبد الله و بن ناصر بن شهرة، وكان تصرفه هذا عاملا قويا حفز الفرنسيين ودفعهم بقوة إلى احتلال تقرت، التي توجهت إليها قوات ضخمة آتية من بوسعادة بقيادة العقيد ديفو والقائد جيري قادما بقواته من الأغواط،[19] كما تعززت القوات الفرنسية بكتائب وطوابير عسكرية أخرى، والتحمت هذه القوات مع جيش سلمان والشريف محمد بن عبد الله، وجيش النجدة الذي قدم من "وادي سوف" تلبية لنداء سلمان لهم، وكانت المعركة في نواحي المقارين في المكان المعروف ببورخيص،[20] في يوم 29 نوفمبر 1854 ، وانتهت المعركة بانتصار الفرنسيين والتجاء سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله إلى تقرت والاعتصام بها، وخضعت المدينة لحصار فرنسي شديد، بينما انسحب المقاومون من أهل سوف إلى الوادي، وفي يوم 2 ديسمبر 1854 غادر الشيخ سلمان والشريف محمد بن عبد الله تقرت، التي سقطت في

يد الفرنسيين يوم 5 ديسمبر 1854، لما دخلها العقيد ديفو قائد ناحية باتنة،[21] معلنا عن سقوط "مشيخة بني جلاب" التي حكمت
تقرت أكثر من أربعة قرون.

هـ) احتلال وادي سوف(1854/12/14):

بعد إحتلال الجيش الفرنسي لإمارة بني جلاب "تقرت" سهُل عليهم مواصلة زحفهم نحو" وادي سوف".
ويومئذ ترك العقيد "ديفو" بعض قواته بمدينة تقرت للمحافظة على الأمن، وقاد بقية القوات القادمة من باتنة والأغواط وبوسعادة وإتجه نحو وادي سوف،[22] في 10 ديسمبر 1854 وكان مضطرا لسلوك طريق رملي صعب، وبعد معاناة مع الطبيعة، وبعض المناوشات في القرى المحيطة بالمنطقة، فان الصدام على أبواب المنطقة كان عنيفا بين الطرفين، فقد استمات سكان سوف وبذلوا أقصى ما عندهم من جهد وهذا ما أشار إليه صاحب الصروف بقوله: " ثم بعد أن نزلت تلك المحلة بتقرت وأخضعت أهلها ارتحلت متوجهة إلى سوف لتخبر أهلها وبعد قتال بين الطرفين أياما عديدة في النخيل والسيوف[23] تغلبت المحلة على سوف."[24] وحسب المصادر الفرنسية، فإن العقيد ديفو قضى مدة سبعة أيام بسوف.[25] قضاها في الصراع مع المقاومين، ولكن القوات الأهلية عجزت في رد الزحف الفرنسي، فاستجابت للمفاوضات التي مكنت هذه القوات من التقدم نحو مركز سوف، مدينة الوادي، في حدود 14 ديسمبر 1854، ثم رجعت إلى تقرت يوم 22 ديسمبر 1854، لتقوم بتنظيم الإقليم وضبط شؤونه الإدارية بالاشتراك مع منطقة وادي سوف، فبادر العقيد ديفو بتعيين "علي باي " بن فرحات بن سعيد " قايد " على تقرت وسوف باسم فرنسا منذ 26 ديسمبر 1854.[26]

وعند رجوع القوات الفرنسية لم تترك في سوف أي اثر لها من القوات العسكرية لتحافظ على احتلالها، وذلك جعل المنطقة محل صراع مرير ومقاومة متواصلة دامت قرابة 30 سنة، ولم تتمكن السلطات الفرنسية من الاستقرار النهائي بسوف إلا في منتصف الثمانينات عندما طوقت تلك المقاومات، وقضت على زعمائها.[27]

3) المقاومة الشعبية بوادي سوف ورد الفعل الفرنسي:

أ) المقاومة الشعبية بوادي سوف والصحراء الشرقية: شهدت وادي سوف ـ بعد احتلالها ـ أوضاعا صعبة، وتفاقمت الاضطرابات، وبدأت تحركات المقاومين،[28] تنتشر في اطرافها، والبلدان الصحراوية المتاخمة لها، ونذكر من المقاومين :

ـ سي النعيمي: من أولاد سيدي الشيخ، اختلف مع أخيه سي حمزة الموالي للفرنسيين، فانظم سي النعيمي إلى الشريف محمد بن عبد الله وبن شهرة عام 1853، وشارك معهم في المقاومة.

ـ محمد بو علاق اليعقوبي: الثائر تونسي وهو رئيس أولاد يعقوب المتمردين على السلطة التونسية.

ـ الطيب بن عمران الشعنبي: كان يسكن وادي سوف، وقد جمع 264 من المحاربين من طرود سوف وشعانبة الوادي وعسكر بهم في جنوب ورقلة في فيفري 1864 لغزو تلك الجهات ثم التجأ كغيره من المقاومين إلى تونس.[30] عام 1868، وارتبط بالثوار في زاوية نفطة العزوزية.

ـ بن ناصر بن شهرة ومحمد بن عبد الله: عندما قدما من تونس، وجددا المقاومة، وشاركا في ثورة أولاد سيدي الشيخ في 1864، ولكن بسبب الاختلاف في وجهات النظر اعتزلهم محمد بن عبد الله وانسحب إلى تونس لعدة سنوات.[29] بينما واصل بن شهرة في المقاومة،[31] بعدة جبهات في وسط الصحراء وفي أطرافها المتاخمة للحدود الجنوبية والشرقية. وكانت تربطه علاقة مع الطيب بن عمران الشعنبي، الذي كان مشهورا بجرأته وقوته.

ـ مقاومة محمد التومي بوشوشة: بدأ حركته الثورية سنة 1869 عندما اتصل به بن ناصر بن شهرة، وشرعا في تنسيق الجهود، واستطاعا ما بين سنتي 1870 – 1871 أن يهيمنا على عدة مناطق في الصحراء بعد هزيمة الحكام المحليين الموالين للاستعمار، وتم تنصيب آغوات (قياد) من الثوار انفسهم. ففي مارس 1870 استولى بوشوشة على المنيعة وألقى القبض على القايد جعفر وسجنه، واستولى على عين صالح في ماي 1870، وتواصلت تحركاته في ضواحي متليلي الميزابية وورقلة،[32] وتقرت وسوف وخاصة بعد انطلاق ثورة المقراني التي ارتبطت بمقاومة الجنوب ارتباطا وثيقا، وأهم العمليات التي أنجزها بوشوشة:

1. الاستيلاء على ورقلة في 5 مارس 1871 وعين عليها بن ناصر بن شهرة آغا وبقي بها إلى سبتمبر 1871، وكانت ورقلة قبل ذلك تابعة لآغوية علي باي الذي كان آنذاك في حاسي الناقة،[33] فاتصل جماعة من شعانبة الوادي ببشوشة يومئذ وذكروا له أفعال علي باي وظلمه وطلبوا منه أن يغتنم الفرصة ليستولي على أموال علي باي وعياله وكل زمالته التي أودعها ببلدة "قمار" بوادي سوف.[34]

2. هجوم بشوشة على قمار يوم 8 مارس 1871،[35] بجيش قوامه 900 مقاتل،[36] إلا أن عائلة علي باي وجدت المساندة والحماية من زاوية قمار التجانية، وبعد مفاوضات مع أعيان الوادي رجع بشوشة وسلمت زمالة علي باي،[6] ولكن آغويته لم تسلم من سطوة بشوشة .

3. فاستولى بوشوشة على تقرت في 13 ماي 1871 وعين بوشمال بن قوبي آغا،[37] ويعتبر سقوطها نهاية حتمية لحكم "علي باي"ودخول منطقة سوف التابعة لتقرت تحت حكم بشوشة.

ولم يكد يوم 13 جويلية 1871 ينقضي حتى صار بشوشة المتحكم في الصحراء الجنوبية من نفطة الى تقرت بمؤازرة القوى الشعبية المختلفة.[38]

ـ مقاومة محي الدين بن الأمير عبد القادر: ظهر في الجبهة الشرقية الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي قدم من بلاد الشام إلى تونس في شهر اكتوبر 1870 ، واستقبل بحفاوة من طرف السلطات التونسية، وكرم يوم 18 نوفمبر 1870، فاغتنم ذلك الوضع ووجه مأتي رسالة إلى زعماء الجزائر يدعوهم فيها إلى الاستعداد

لمحاربة فرنسا معه عند قدومه اليهم من تونس،[39] ولكنه غادر تونس إلى مالطة ومنها إلى طرابلس التي انطلق منها عائدا إلى الجنوب الجزائري فاتصل بالمقاومين ومنهم بن ناصر بن شهرة وإبراهيم بن عبد الله واتجهوا جميعا إلى وادي سوف.[40] وشرع محي الدين في تنظيم كفاحه إذ التف حوله عدد من اللاجئين الجزائريين والمنفيين الذين كانت زاوية نفطة الرحمانية مركزا لهم.[41] ولكن السلطات التونسية بدأت تمارس الضغط على محي الدين ،فالتجأ إلى جنوب الجزائر ،[42] ودخل في صراع مع أعوان فرنسا وخاصة حاكم تقرت وسوف علي باي في بداية عام 1871.[43]

ولما انطلقت ثورة المقراني حاول محي الدين التعاون والتنسيق مع الثورة، فلم يتمكن من ذلك بسبب صعوبة التوغل نحو الداخل فاتجه إلى الجهة الشرقية فنزل بنقرين في 9 مارس 1871، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على تبسة، وحينئذ انتهت الحرب بين ألمانيا وفرنسا فرجعت القوات الفرنسية إلى الجزائر لقمع المقاومات الشعبية التي عمت البلاد فأدرك محي الدين أن المقاومة صارت غير مجدية،[44] فغادر البلاد إلى سورية في شهر جويلية 1871.[45]

ب) رد الفعل الفرنسي على المقاومة بالجنوب الشرقي الجزائري:

عندما بدأت المقاومة الشعبية تجتاح الجنوب الشرقي في بداية 1871 عهد الفرنسيون إلى حكامهم المحليين أمر مواجهتها في 12 أفريل 1871، إذ أوكلت ذلك إلى علي باي ومحمد الصغير بن قانة[46]. لكنهم أبدوا عجزهم، فتأكد الاستعمار أن هؤلاء الأعوان لا يحققون للجيش الاستعماري التوسع ولا الاستقرار، فتم إعداد جيش فرنسي لهذه المهمة بقيادة الجنرال – **لاكروا فوبوا – " LACROIS VAUBOIS "** الذي أعد خطة لمواجهة المقاومة الضارية،[47] وبدأت عملية الاجتياح الاستعمارية من ورقلة التي انتزعها من أنصار بوشوشة يوم 2 جانفي 1872، ثم زحف على تقرت وسيطر عليها، ثم لاحق قوات الثوار والتحم جيشه معها يوم 9 جانفي 1872 واستولى على معظم زمالة بوشوشة بما فيها من حيوانات وأمتعة.[48] ثم اتجه نحو وادي سوف وأخضعها للسلطة الفرنسية.[49] وعيّن عليها حاكما من جنود الصبايحية يدعى العربي المملوك.[50]

4) اثر المقاومة الشعبية علي العلاقات مع تونس:

رغم كل التدابير التي اتخذتها فرنسا للحد من قوة المقاومة، إلا أن جذوة الجهاد اشتعلت أكثر ولاسيما في المنطقة الممتدة من عين صالح إلى ورقلة وتقرت ووادي سوف، وتبسة ونقرين بالشرق وبلاد الجريد ونفطة بتونس، ولقيد التأييد الأولي من تونس

. الدعم التونسي للمقاومة الشعبية: لقد ساعد الموقع الجغرافي لوادي سوف والامتداد الرملي الشاسع والمناخ القاسي الذي تميزت به، على عزل هذه المنطقة مؤقتا، وجعلها الملاذ الآمن الذي يأوي إليه المقاومون الشعبيون بعد انتهاء معاركهم فيستقرون من أجل استرجاع الأنفاس وتجديد روح المقاومة والإعداد للمعركة

الجديدة. فضلا عن ارتباطها الوثيق ببلاد الجريد التونسية، وقربها الشديد من الحدود، جعل فلول المقاومة تجد راحتها واستقرارها في نفطة وبلاد نفزاوة، التي تتواجد أطراف من المرازيق وأولاد يعقوب، وسكان قبلي، والتجأ إليها بعض المقاومين كمحمد بن عبد الله وغيره.[51]

كما كانت زاوية نفطة الرحمانية (العزوزية)[52] مركزا للمقاومين، وقد التجأ إليها سلطان تقرت السابق سلمان بن جلاب، وإبراهيم بن عبد الله مقدم القادرية بورقلة، ومحمد العشابي البسكري الذي التجأ إلى نفزاوة منذ مدة طويلة، ومحمد بن أحمد الصغير بن الخليفة السابق للأمير عبد القادر بالزيبان، ومحمد بوعلاق رئيس أولاد يعقوب الثائرين التونسيين، والشيخ الميزوني مقدم زاوية الكاف الذي وضع تحت تصرف محي الدين كاتبا يساعده في تحرير الرسائل والنداءات،[53] وأولاد البطل الشعانبي السوفي بوطيب بن عمران.[54]

وبعد انكسار مقاومة المقراني انسحب أخوه بومزراق نحو الجنوب ثم توجه نحو تونس عبر تقرت وسوف ونفطة وتوزر،[55] بمعية ابن ناصر بن شهرة في شهر جانفي 1872،[56] وكان بومزراق يقود عائلته عددهم حوالي 150 شخصا، ودخلوا إلى الجريد التونسي واستقروا هناك.[57]

ويعتبر منتصف عام 1871 مرحلة حاسمة في تاريخ تونس، التي كانت تعاني من أزمة مالية حادة، وصارت تحت وصاية اللجنة المالية العالمية، [58]، وصارت سيادتها منقوصة، وتلقت ضغوط أجنبية ولاسيما من فرنسا، التي كانت عينها على البلاد، ويومئذ شعرت حكومة محمد الصادق باي بخطر حركة محي الدين بن الأمير عبد القادر على البلاد التونسية، وتأثير ذلك على العلاقات التونسية الفرنسية، فطلبت من كل ولاتها توقيف محي الدين وجماعته وسجنهم وإرسالهم إلى تونس، غير أن محي الدين أدرك ذلك فالتجأ إلى جنوب الجزائر.[59]

. المخطط الفرنسي للقضاء على المقاومة الشعبية: إن تواجد الفرنسيين في جنوب الجزائر، ولاسيما وادي سوف المتاخمة للحدود التونسية، جعلهم يسعون لرسم المخطط الاستعماري، ففي أواخر الخمسينات أراد الجنرال "راندون" [60] ضبط الحدود الشرقية للمنطقة، فتم إنجاز خريطة سنة 1857 ولكن الحدود النهائية للعرق الشرقي الكبير لم تحدد لها معالم ثابتة، وإنما خضعت للتغير باستمرار خصوصا ما بين 1867 – 1870، إذ بقيت الحدود غير واضحة ما بين سوف وجنوب شط الجريد.

وانتهت فترة السبعينات من القرن التاسع عشر بتصفية فلول المقاومة الشعبية المسلحة بالجنوب، والاستمرار في تهيئة الظروف للاستقرار الفرنسي في الجنوب الجزائري قريبا من الحدود التونسية ، وتعتبر منطقة سوف من أهم المواقع التي يمكن استغلالها لتأمين ظهر الفرنسيين في شمال تونس.[61]

وتمكنت فرنسا من اختلاق ذريعة للتدخل في شؤون تونس، باستغلال الصراع الذي حدث بين قبائل الخمير في الشمال الغربي لتونس مع بعض الجزائريين فتدخلت فرنسا لردع المعتدين، بجيش قوامه ثلاثين ألف جندي،[62] عبر الحدود يوم 24 أفريل 1881 واحتل مدينة الكاف،[63] ثم تقدم داخل التراب التونسي نحو

الوسط والجنوب، وأنزل ثمانية ألاف جندي في بنزرت، واتجهوا كذلك نحو العاصمة، وتم فرض الحماية على تونس يوم 12 ماي 1881.[64]

وفي شهر جوان 1881 اندلعت الثورة الشعبية في شرق البلاد التونسية وجنوبها بقيادة علي بن خليفة،وامتدت من القيروان إلى صفاقس، وتمكن الثوار بسهولة من السيطرة على كل الإقليم الجنوبي بما يشتمل عليه من سواحل تمتد حتى حدود طرابلس. فرد الفرنسيون بقوة، عن طريق الأسطول الفرنسي الذي ضرب صفاقس وقابس بقوة، كما تم إعداد ثلاث طوابير فرنسية اتخذت من سوسة قاعدة لها ثم أخذت في الزحف نحو الجنوب وتمكنت من إخماد المقاومة وأخضعت الإقليم لحكمها العسكري.[65]

والجدير بالذكر أن الضابط ديبورتر " Deporter " [66] شارك في احتلال تونس سنة 1881،[67] ثم انتدب لسوف فقام بوضع أسس أول مكتب عربي بالمنطقة، وتم اختيار منطقة الدبيلة،[68] القريبة من الحدود التونسية، فكانت المركز الأول للاستقرار الفرنسي بوادي سوف.

كما تم تأسيس برج صغير للحراسة بقي ثابتا بالدبيلة، واستمر إلى سنة 1887 رغم تناقص عدد أفراده يومئذ.[69] والجدير بالذكر أن الإدارة الفرنسية بدأت عملية استقرارها بقوة في مدينة الوادي عاصمة الإقليم خلال سنة 1882.[70] حتى تبقى المقاومة مطوقة، وترتبط العلاقات بين الحاكم العام بالجزائر وسلطات الحماية الفرنسية في تونس.

الخاتمـة:

تعتبر المقاومة الشعبية في الجزائر أحد المفاخر في التاريخ الوطني، للدفاع عن البلاد، ومواجهة المستعمر، والتعبير عن الرفض الشعبي للاحتلال، رغم قلة الامكانيات المادية، وما يمكن الوقوف عليه من أوجه المقاومة الشعبية بوادي سوف، وأثرها على العلاقات السياسية مع الجنوب التونسي:

ـ كشفت هذه الدراسة عن معاناة الفرنسيين من التوغل في أراضي الجنوب الجزائر، ولم تستطع ولوج أراضيها إلا بعد نحو عشر سنوات، منذ احتلال بسكرة 1844، وغزو تقرت ووادي سوف سنة 1954. ولم تتمكن من الاستقرار النهائي الا بعد ثلاثة عقود، لأن المقاومة كانت عنيفة، وصارت البلاد تشتعل نارا من عين صالح إلى وادي سوف، وعرفت جهود كبار المقاومين من أمثال محمد بن عبد الله، وبن ناصر بن شهرة، ومحمد التومي بوشوشة، ومحي الدين بن الأمير عبد القادر، وعاني أعوان الاستعمار من ضربات المقاومة، وعجزوا عن التصدي لها بمفردهم، وتطلب استقدام القوات الفرنسية من الوسط والشمال.

ـ كانت تونس ملاذا أمنا، ومأوى كريما، تجمعت فيه الأطراف العديدة، وبعد تلقي قسط من الراحة، تنطلق إلى الجنوب، وتضرب في أعماق العدو، الذي فقد حامياته، وسيطرت المقاومة على المنطقة، وعينت القياد،

وأمسكت بزمام الأمور، ولكن الضعف الذي عانت منه تونس بسبب فقدان سيادتها، جعلها تتخلى عن عونها للمقاومة حتى تحافظ على علاقاتها مع فرنسا المتنفذة في المنطقة.

- إن الاحتلال الفرنسي للجنوب الجزائري، تم وفق مراحل وجهود معتبرة بذلها الفرنسيون، وامتازوا بطول النفس في مواصلة الزحف نحو معاقل المقاومة، والسعي لتجفيف منابع القوة فيها، ومحاصرتها من الجنوب بزحف القوات الفرنسية، ومن الجنوب التونسي من طرف نظام الباي الذي تخلى عن بلده، وهذا لا يجعله حريصا على المقاومة، التي تصدت لها القوات الفرنسية بقوة عند احتلال تونس 1881.

- إن منطقة وادي سوف، برزت كمنطقة إستراتيجية في الجنوب الجزائري، وببسط النفوذ الفرنسي عليها، مكن من مراقبة أي حركة، وجعل المقاومة تحسب ألف حساب لخطواتها المستقبلية، لأن القوات الفرنسية صارت متواجدة بحاميتها، وثكنتها التي شرعت في تشييدها بمركز وادي سوف في مدينة الوادي.

ويظهر مما سبق أهمية هذه المنطقة الصحراوية في ربط العلاقات، وإيواء المقاومة، والمساهمة في المقاومة الوطنية للاستعمار الفرنسي، ويبقى تاريخها صفحة ناصعة في الحفاظ على الجزائر والدفاع عنها من كل الغزاة والمتربصين من الأعداء.

الهوامش:

1) يحي بوعزيز : **كفاح الجزائر من خلال الوثائق**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 57.

2) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، ص.284

3) إبراهيم مياسي : **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية، لجزائر، 1999، ص ص 70-.71

4) إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص 247. يحى بوعزيز: **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث، ط1، قسنطينة، 1980، ص .49

5) يحي بوعزيز ، كفاح الجزائر، ص 56 .

6) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص .357

7) إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص .85

8) يحي بوعزيز ، كفاح الجزائر، ص 56 .

9) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 358-.359

10) ج ايفر : الأغواط – في **– دائرة المعارف الإسلامية –** دار الشروق، القاهرة، 1933، المجلد الثالث، ص 576.

11) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 359–360.

12) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، ص 127.

13) Souad Selami : **Touggourt Esquisse Historique** ,Les imprimeries du sud ,Ouargla, 1998,P 65.

14) الحاج محمد الصغير دبابي – "**حقائق من تاريخ بني جلاب بوادي ريغ**" **–** مدونة الملتقى التاريخي الثالث لفترة حكم بني جلاب بوادي ريغ، 1998. الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، الآمال للطباعة الوادي– الجزائر، 1999، ص 43.

15) Souad Selami, op. Ci t , p 65.

16) محمد الصغير دبابي، المرجع السابق، ص ص 43–44.

17) بن نعمية عبد المجيد " **مواقف شيوخ بني جلاب في تقرت من الاحتلال الفرنسي 1830 – 1854** " مدونة الملتقى التاريخي الثالث لفترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ. المرجع السابق. (1998). ص 125.

18) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، ص 178.

19) نفسه، ص 128.

20) عبد الحميد ابراهيم قادري: **التعريف بوادي ريغ،** منشورات جمعية لبوفاء للشهيد بتقرت، الأمال للطباعة والنشر، الوادي – الجزائر، 1999، ص 19.

Souad Selami – op . cit . p 66 .

21) André Voisin – le souf Monographie d'une région Saharienne, –1985. Paris, p 47.

22) (23Ibid – p 47.

السيوف: هي الكثبان الرملية.

24) إبراهيم العوامر – المرجع السابق. ص 24.

25) - Commandant Couvet – Notes sur le souf et les souafa – Bulletin de la societé de geographie d'Alger. 1934, p 50.

(26 André Voisin – op . cit. . p 47.

27) علي غنابزية : " **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م**، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001. ص 40.

28) إبراهيم العوامر – المرجع السابق – ص 250.

29) يحي بوعزيز – ثورات الجزائر – ص 128.

(30 André Voisin – op . cit . p 48.

31) يحي بوعزيز – ثورات الجزائر – ص 179.

32) نفسه، ص 185.

33) نفسه، ص ص 180-185.

34) إبراهيم العوامر – المرجع السابق – ص 253.

(35 (36 Luis Rinn – **Histoire de l'insurrection de 1871 en Algerie**_–Alger. 1891 . p 486.
Andre Voisin – op . cit . p 43.

37) إبراهيم العوامر – المرجع السابق – ص 253.

38) Luis Rinn . op . cit P 612.

39) يحي بوعزيز – كفاح الجزائر – ص 250.

40) عبد الجليل التميمي **– بحوث ووثائق في التاريخ المغربي. الجزائر وتونس وليبيا 1816 – 1871 –** ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني. تونس. ط 2.الجزائر. 1985. ص 253.

41)يحي بوعزيز – كفاح الجزائر – المرجع السابق. ص 252.

42) عبد الجليل التميمي – المرجع السابق – ص ص 30 –31.

43) يحي بوعزيز – كفاح الجزائر – المرجع السابق. ص 275.

44) عبد الجليل التميمي – المرجع السابق – ص 31.

45) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي** ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1998، ج 5، ص 560.

46) عبد الحميد قادري – المرجع السابق – ص 20.

(47 C .CAUVET. OP- CIT. P 50.

48), يحي بوعزيز – ثورات الجزائر – ص 180.

49) ابراهيم العوامر – المرجع السابق. ص 257.

(50 C .CAUVET. OP- CIT. P 50.

51) أنظر: محمد المرزوقي: **صراع مع الحماية**، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973، ص ص 243-245.

52) **مصطفى بن عزوز**: ولد بالبرج قرب طولقة بالزاب، وهو ابن مؤسس الطريقة العزوزية (محمد بن عزوز) وهي فرع من الرحمانية. وقد هاجر إلى تونس اثناء احتلال فرنسا لبسكرة، واستقر في نفطة حيث أسس بها زاويته المذكورة، وكانت له مكانة دينية وسياسية لدى السلطات التونسية. وقد فتح زاويته للمقاومين الجزائريين، وتوفي سنة 1866. انظر : محمد محفوظ – **تراجم المؤلفين التونسيين –** دار الغرب الإسلامي. ط1.بيروت. 1984. ج 3. ص ص 379 – 381. . أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي – ج 4، ص ص 146 – 153.

53) يحي بوعزيز – كفاح الجزائر – المرجع السابق. ص 252.

54) يحي بوعزيز : "ثورة ابن ناصر بن شهرة 1850 – 1875 "– في – **من أبطال المقاومة الشعبية بالجنوب** – مدونة الملتقى الوطني الثالث للمقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي بالجنوب. الاغواط 23 إلى 25 ماي 1998. وزارة المجاهدين. ولاية الاغواط. ص 33.

55) الطاهر اوصديق: **ثورة 1871** ، ترجمة جباح مسعود. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص 146. أبو القاسم سعد الله – أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر – ج 3. ص 103.

56) يحي بوعزيز، ثورة 1871، المرجع السابق، ص 308.

57) الزبير سيف الإسلام : **ثورة المقراني** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 55.

58) محمد الهادي الشريف: **تاريخ تونس**، ترجمة محمد الشاوش– محمدعجينة، دار سراس للنشر، تونس، 2001، ص 97.

59) عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق، ص ص 30 – 31.

60) **راندون**: هو الحاكم العام للجزائر (1851 – 1858) ويعرف عهده " بعهد استكمال الاحتلال " انظر : أبو القاسم سعد الله – الحركة الوطنية – ج 1. ص 371.

61) علي غنابزية، المرجع السابق، ص .52

62) حسن حسني عبد الوهاب : **خلاصة تاريخ تونس**، الدار التونسية للنشر. ط 4. تونس. 1968. ص 213.

63) جلال يحي : **المغرب الكبير**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 3، ص 320.

64) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ص 213 – 214.

65) جلال يحي – المرجع السابق. ص 321–331.

66) كان هذا الضابط ينتمي للمكتب العربي ببسكرة، وتقدم نحو تونس بقدر الحاجة، وكان على اتصال بمصلحة الاستخبارات بالجريد.

67) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، المرجع السابق، ص .50

68) **الدبيلة:** بلدة تقع في الناحية الشمالية الشرقية لوادي سوف، وتبعد عن الحدود التونسية بحوالي 62 كلم، وعن سوف بحوالي 20 كلم.

69) C. Cauvet . op . cit . p 51.

70) Gaid Zobeidi Si Hocine – Histoire succinct de l'Administration du Souf dans les deux dernieres siecles avant l'Ariveé des français - 1952.
Direction de Moudjahidine – EL-OUED